الصحافة فى البلاد العربية

من الأحاديث التى رويت عن النبى عليه السلام – حديث يلخص دستور السياسة والاجتماع فى كلمات معدودة . وهو قوله عليه السلام : « كما تكونوا يول عليكم » .

ومن آيات الصدق فى هذا الحديث الحكيم ، أنه يصدق على كل حالة اجتماعية تتمثل فيها صفات الأمم ، ولا يقف عند مشابهة الحكام للمحكومين أو مشابهة نظام الحكومة لأطوار الأمة وأخلاقها .

ففى وسعنا على هذا القياس أن نقول « كما تكونوا تكن صحافتكم » ونحن صادقون فى القول ، لا نعدو به حدود الواقع الملموس .

لأن الصحافة تابعة للأمة التى تعيش فيها ، وليست بسابقة لها ولا مترقية عليها .

وإذا اتفق فى موقف من المواقف النادرة أن تقدمت الصحافة على أمتها فتلك ولا ريب عارضة لا تدوم . لأن الصحافة إذا تقدمت أمتها على الدوام انقطعت عنها ، وليس فى وسع صحيفة من الصحف أن تنقطع عن قارئيها وعن البيئة التى تكتب لها ،

وهى مضطرة إلى الرجوع إليها يومًا بعد يومَ ،-أو أسبوعًا بعد أسبوع ، أو شهرًا بعد شهر ، كما تضطر جميع الصحف اليومية والمجلات الدورية .

قد يستطيع الكاتب أن يسبق الأمة بكتاب لأنه يصدر مرة واحدة أو بضع مرات ، وقد ينتشر بين أفراد الأمة لأنه يغضبها ويخالف أهواءها ، كما ينتشر بينهم لأنه يرضيها ويوافق مزاجها .

أما أن يسبق الكاتب أمته بصحيفة دائمة فذلك أمل عسير ، يستبعده العقل ، كما تدلنا التجربة الواقعة على أنه بعيد - جد بعيد .

فإذا سألنى سائل - كيف تريد الصحافة فى البلاد العربية ؟ قلت - كما أريد البلاد العربية واختصرت بذلك مراحل الطريق .

إن الصحافة المثلى هى صحافة مستقلة فى آرائها ، مخلصة فى نصائحها أمينة فى أداء رسالتها ، خادمة للثقافة والأخلاق فيما تنشره من موضوعاتها وأخبارها .

وفى مقدورك أن تؤدى هذه الشروط بعبارة أخرى مرادفة لها كل المرادفة وهى أن الصحافة المثلى هى صحافة الأمة المميزة الرشيدة .. والتمييز فى الأمم ثمرة من ثمرات التعليم والفطرة المستقيمة . فإذا كانت الأمة متعلمة قويمة الفطرة فلا تشترط فيها شروطًا للصحافة لأنها لن تروج فيها إذا هى خالفت شروط

الاستقلال والأمانة ، والخدمة القومية التى تقدم مصلحة الوطن على مصالح الأحزاب والأفراد .

فى الأمم التى يعوزها العلم والدراية السياسية يصدقون الرأى الأعوج ويكذبون الرأى المستقيم ويقبلون الباطل السخيف ويعرضون عن الحق المبين . لأن تمييز الحق يحتاج إلى كفاءة ذهنية وفضيلة خلقية ولا يصل إليه المرء إلا بعد الموازنة بين الأسباب والمقابلة بين الأسانيد والبراهين والرجوع إلى المعلومات والسوابق المأثورة . أما قبول الباطل فلا يحتاج إلى شىء من ذلك .. كل ما يحتاج إليه جهل وكفى .. والجهل لا يتعلمه الجهلاء بعناء .

وفى الأمم التى يعوزها العلم والدراية الفطرية تستعر الخصومات الحزبية وتتجاوز الحدود ، لأن الرأى العام لا يحسن الحكم الفاصل بين الخصوم ولا يدرك حقيقة الدعاوى والأقاويل ، فلا تزال الخصومات قائمة ، ولا تزال الأباطيل شائعة والحقائق مجهولة ولو عرضت هذه الخصومات على جمهور يفطن إلى صوابها وخطئها لقضى على الخطأ وأخذ بناصر الصواب فى ساعة ظهوره . فأراح نفسه وأراح المختلفين من لجاجة الخلاف .

ونحن نلمح أثر التقدم فى صحافتنا كلما لمحنا أثر التقدم فى أقوامنا وجماهيرنا فنحن اليوم خير مما كنا بالأمس ، ونحن

غدًا - فيا نرجوه - خير مما نرانا اليوم .

ولا يخطىء المتعجلون فيقولون - إن صحافة الأمس لم تكن تعرف كل هذا التنابذ بالتهم والأكاذيب بين الأحزاب ، إذ الواقع أنها كانت خلوًا من ذلك لأن البلاد كانت خلوًا من الأحزاب وكانت سياستها فى أيد غير أيدى أبنائها ، فلما أخذت فى الاستقلال بشئونها والتنافس على زعامتها كانت العوارض الحزبية فيها علامة من علامات التقدم واليقظة ، ولم تكن علامة من علامات النقص والرجوع إلى الوراء .

* * *

إننى صحفى ، ولكننى لا أبالغ فى رسالة الصحافة ولا أؤمن بأن الصحافة وحدها كافية للقيام بأمانة التثقيف والهداية ، ولو ارتفعت الأمة إلى أرفع مراتب الأدب والتعليم .

ففى الأمم التى بلغت غايتها من العلم والتربية ، تؤتى الصحافة من آفة التقدم لا من آفة الجمود ، وتصاب من ذيوعها بعد أن كان الخطر كل الخطر أن تصاب من ضيق النطاق .

لأن الصحافة إذا انتشرت تعددت وتفرعت وظهرت لكل حزب صحيفة ولكل جماعة من الأمة لسان ينطق بما تريد . ويتفق كثيرا فى هذه الحالة أن تقرأ الجماعة صحيفتها ولا يتسع لها الوقت لقراءة الصحف الأخرى ، فيفوتها أن تحيط بوجهات

النظر كلها وتسمع أبدا من جانب واحد ، ولا تسمع من الجانب الذى يعارضه ويصحح أخطاءه .

وهذه آفة الارتقاء والانتشار .

وإلى جانب هذه الآفة آفة أخرى تظهر لنا قصور الصحافة عن الاستقلال بأمانة التثقيف والهداية ، فهى على أحسنها وأفضلها لا تغنى عن ثقافة الكتاب لأن الطبيب مثلا يقرأ كتابًا ليستوفى البحث فى مسألة من مسائل علمه ، ولكنه لا يعتمد على الصحيفة لأنها تنشر من حين إلى آخر فصلا فى الطب من هنا وفصلا فى الطب من هناك .. ويقال فى الأديب والفنان والمهندس والفقيه ما يقال فى الطبيب .

فمهما يبلغ من ارتقاء الصحافة غدًا فى بلادنا العربية ، فلنحسب حسابًا لهذا القصور الذى يلازم الصحافة فى أرقى البلاد ، ولنعلم أنها لن تنفرد وحدها بتكوين الآراء الصحيحة . ولابد لنا من وسيلة غير الصحافة لدراسة المسائل العامة من جوانبها المتعددة أو لاستيفاء البحث فى شئون الثقافة وقضايا الاجتماع . وقد تتيسر لنا هذه الوسيلة من طريق الكتاب ، وطريق المذياع ، وطريق الصور المتحركة فى بعض المناظر والروايات .

* * *

إذا كانت الصحافة لا تسبق الأمة دائمًا فهى قادرة على أن

تسبقها فى بعض الأوقات .

وإذا كانت لا تعدو أمامها بخطوات فساح ، فعليها أن تمشى معها وفى مقدمة صفوفها ، ولا تمشى وراءها أو تقعد مع الخوالف فى آخر الصفوف .

وإذا كانت الصحافة تروج بمخاطبة العدد الأكبر من الغوغاء - فهى لا تخسر إذا خاطبت النخبة القليلة من الممتازين . بل تجمع بذلك زينة الاحترام إلى منفعة الرواج .

ولهذا يقع اللوم كثيرًا على الصحفى العربى الذى يتوانى عما يستطيعه وهو غير عسير .

إنه لا يستطيع أن يسبق أمته فى كل نسخة من الصحيفة ولكنه يستطيع أن يسبقها فى بعض الأيام .

وهو لا يستطيع أن يهمل حساب الدهماء ، ولكنه يستطيع أن يحسب حساب النخبة الفضلاء .

وهو لا يستطيع أن يثابر عل المسير أمام الصفوف ولكنه يستطيع أن يتجنب المسير فى الصف الأخير .

والعاملون بالواجب الصحفى فى هذا الصدد ثلاث طبقات : طبقة تحمد وطبقة تعذر وطبقة تلام .

فالطبقة التى تحمد - ويا للأسف قليلة .

والطبقة التى تلام - ويالأسف - كثيرة .

والطبقة التى تعذر وسط فى القلة أو الكثرة بين الطبقتين .

ولا نطيل فى التمثيل والاستشهاد . فيكفى أن نشير إلى معارض الآداب والعلوم والفنون فى الصحافة الغربية ونشير إلى أمثال هذه المعارض فى صحافتنا الكبرى أو الصغرى على السواء . فهنا فى الشرق تحيا الآداب والعلوم حياتها بمعزل عن الصحافة كلها . حتى لو اعتمد المؤرخ على الصحافة وحدها فى تسجيل حركتنا الثقافية لخرج من صفحاتها جميعًا صفر الوطاب ، على خلاف صحافة الغرب التى تتابع كل حركة أدبية أو فنية ، وتعنى بتخصيص الملاحق القيمة للنقد والدراسة والتلخيص ، فلا يعيى المؤرخ أن يرجع إليها ويعتمد عليها فى الإلمام بالنهضة الثقافية على أى عهد من العهود .

إن الإصلاح فى الشرق عسير أو لا يزال حتى اليوم أعسر مما ينبغى أن يكون .

وإذا كان بعض الصحف عونًا على الإصلاح فبعضها عقبة فى طريق كل إصلاح ... بل هى نفسها آفة من الآفات التى تحتاج من أجلها إلى جهود المصلحين .

والشرق كما نعلم موطن الأنبياء والهداة ودعاة الإصلاح . ونحن بهذا نفخر ومنه نستمد الثقة والعزاء .. ولكننا كلما فخرنا بأنبياء الشرق وجب أن يكون الجهر بالصدق من مفاخرنا الأولى ، وعظمة لنا ولا ريب أن يكثر بيننا الصالحون للنبوة ، ولكن لولا صعوبة الإصلاح لما كثر الأنبياء ، ولولا المحتاجون

إلى العلاج لما كثر الأطباء ، ولولا سهولة الضلال فى الطريق لما تتابع الإدلاّء .

هذا الإصلاح العسير هو الحقيقة التى نذكرها كلما ذكرنا عيوب الصحافة وما وراءها من عيوب الرأى العام . فنحن نطلب من جمهرة الأمة أن تصلح الصحافة ونطلب من الصحافة أن تصلح جمهرة الأمة ، ونبحث عن الذين يصلحون الفريقين معًا فنراهم أقل الدعاة أعوانا فى بلادنا .. لأنهم لا يرتفعون إلى مراتب الأنبياء ولا ينطقون بلسان السماء ومن كذب على السماء بدعواه فهو محتال يبتلينا ببلاء جديد ولا يعصمنا من البلاء المقيم .

على أن الزمن ماض فى طريقه والإصلاح يمضى مع الزمن على هينة ورفق تارة ، وتارة على سرعة وشدة ، وبمشيئتنا فى حين وعلى غير مشيئتنا فى أحيان . وسنبلغ ما نرضاه من العلم والهداية فتبلغ الصحافة ما يرضينا من الأمانة والسداد .

أما اليوم فحسبنا أن نريد منها ما يكون وأن نريد منها ما تستطيعه حيث تشاء ..

فإن عز عليها أن تسبق هوادى الأمة فلا ترجع إلى أذنابها ، ولتتجاوز خطاها كلما تأتى لها أن تتجاوزها ، ولتنظر إلى قلّتها كما تنظر إلى سوادها .. وإذا كانت مرآة تعكس ما يقابلها فلا تكن من تلك المرايا التى تطيل القصير وتقصر الطويل أو تسمن

الأعجف وتعجف السمين ، أو تشوه كل ما تراه من جميل ودميم فتلك هى مرايا الملاهى والمهازل التى يتسلى بها الفارغون . أما المرايا التى تلزمنا للجد والزينة ، فهى التى تصف للعين كل ما تراه على سوائه فنهتدى بها إلى العيوب كما نهتدى بها إلى الحسنات .